السيد عمر مكرم يُطمئن الباشا

ويحضر السيد عمر مكرم ويختلي به محمد علي، ليتفقا على ما يجب فعله، وبدأ محمد علي بسرد ما حدث للسيد عمر بالتفصيل، وأخبره بقرارات السلطان وطلب منه المعونة وقال:

– أنت تعلم يا سيد عمر أن هذه مؤامرة واسعة النطاق، اشترك في حياكة خيوطها الباب العالي والإنجليز ومحمد بك الألفي، ويبدو أن المؤامرة محكمة هذه المرة، ولا أدري كيف سأتصرف فيها، وقد أضطر إلى تنفيذ الفرمان وأتوجه إلى سلانيك!

– لا تقلق يا باشا، فهناك كثيرٌ مما يمكننا عمله، ففي قرارات السلطان نفسها ما يمكن استغلاله لحل هذه المشكلة.

– كيف يا سيد عمر؟

– لقد ذكرت لي يا باشا أن الأمراء المماليك قد عرضوا على السدة السلطانية تعهدهم بدفع الأموال الأميرية إلى خزانة الدولة العليا، وأداء مرتبات الحرمين الشريفين، والعفو عن جرائمهم الماضية، في مقابل إقرارهم على دخول مصر القاهرة، وأن طلبهم قد حاز القبول، وقبلت توبتهم على أن يقبل العلماء والوجاقلية والوجهاء والرؤساء بالديار المصرية كفالتهم، ونحن يا باشا كعلماء ومشايخ مصر لن نستطيع كفالتهم..

- فهل سترسلون هذا المعنى للسلطان ولصالح باشا؟

- سأجتمع اليوم إن شاء الله مع الشيخ الشرقاوي والشيخ السادات وباقي العلماء، ونكتب عريضة للسلطان ولصالح باشا بعد أن نتفق على صيغة مناسبة.

- ولكن يا سيد عمر إن الألفي في البحيرة ويحاصر دمنهور وقد يقتحمها!

- لا تقلق يا باشا، لقد أرسلت إلى نقيب الأشراف بدمنهور، وأكدت عليه بمقاومة قوات الألفي بكل ما يملك من قوة، وهو هناك ينظم المقاومة الشعبية ضده، ولكنني أطلب منك يا باشا أن تستعد لمقاومة قرار العزل ولو بالقوة، وسندعم موقفك عند السلطان إن شاء الله.

وانتهى اللقاء بين الباشا والسيد عمر مكرم الذي ترك الباشا ليجتمع بالعلماء ليدبروا الأمر. وبعد أن شرح السيد عمر ما حدث وتفاصيل اجتماعه مع الباشا وقرارات الباب العالي، اعترض العلماء على هذه القرارات، وقاموا بكتابة عريضة للسلطان ولصالح باشا يوضحون فيها اعتراضهم، وكان مضمون هذا الاعتراض: إن السلطان قَبِل توبة المماليك على أن يَقبل العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية كفالتهم، على أن الموقعين على العريضة هم العلماء والوجهاء لا يستطيعون كفالتهم، فإن شرط الكفيل قدرته على المكفول، ونحن لا قدرة لنا على ذلك

لما تقدم من أمثالهم، ولا يمكننا التكفل والتعهد، لأننا لا نطلع على ما في السرائر وما هو مستكن في الضمائر، فنرجو عدم المؤاخذة في الأمور التي لا قدرة لنا عليها، لأننا لا نقدر على دفع المعتدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم.

وختموا كلامهم بقولهم: إن الأمر للسُدة السلطانية. وكتبوا من العريضة نسختين، إحداهما إلى القبطان باشا، والأخرى إلى السلطان. وكان معنى هذا البيان أن العلماء متمسكون بمحمد علي واليًا، وفي الوقت نفسه حريصون على المحافظة على الخلافة العثمانية، على الرغم من كل ما شابها من ضعف وتحلل في ذلك الوقت، باعتبارها رمزًا لوحدة المسلمين. وعندما وصلت الرسالة إلى قبطان باشا، رفض ما جاء فيها وأرسل إلى السيد عمر مكرم والعلماء رسالة شديدة اللهجة، أصر فيها على رحيل محمد علي وحسن باشا وجميع العسكر الدلاة والأرناؤوط من مصر، ورفض أي أعذار تعوق تنفيذ هذه الأوامر، فقام السيد عمر والمشايخ بإرسال رسالة أخرى لقبطان باشا قالوا فيها:

"إن محمد علي باشا كافل الإقليم، وحافظ ثغوره، ومؤمن سبله، وقاطع المعتدين، وإن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله، والشريعة مقامة في أيامه، ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدل ورفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف، وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها في أيام المماليك المعتدين الذين كانوا يعتدون عليهم،

ويسلبون أموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بأخذ الفرض والكُلَف الخارجة عن الحد، أما الآن فجميع أهل القطر المصري مطمئنون بولاية هذا الوزير.

وبعد أن تأكد محمد علي مساندة زعماء الشعب له، قرر الاستعداد للحرب والمقاومة بالقوة، وأرسل يستدعي حسن باشا وقواته من الصعيد، كما أن جميع الجنود الدلاة والأرناؤوط وقفوا إلى جانبه طمعًا في رواتبهم وعدم ترك مصر، وأرسل جيشًا بقيادة لاظ بك (كتخدا بك) شخصيًّا لمحاربة الألفي.